ذكرياتي مع شيخي النجار

د. أحمد دوّاح

الملحقة الجامعية بمغنية

جامعة تلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين،

شيخنا العلامة الفاضل رضوان محمّد حسين النّجّار:حيّاك اللهُ وبيّاكَ، ولقّاكَ نضْرةً وسُرورا وجزاكَ بما أدَّبْتَ وعلّمتَ جنّةً وحريراً وبعد ،

فإنّي لتَعروني لذكراكَ هزّةٌ تجعلني أُسارع في الكتابة إليكَ،لأقولَ لكَ ما أمسكتُه عنك وطويتُه أمدا بعيدا ،على قُرب المستقرّ والمقام،وكثرة الاتّصال بيني وبينك.وما حداني على التّصدّي للكتابة إليك،إلاّ ما أتمثّلُهُ من تشوُّقك إلى معرفة ما يُقال لك، وما يُقال فيك. فما أنا قائلٌ؟ وأنت **يا شيخي المميز الجليل** تعلمُ علم اليقين أنّ ما أشعرُ به من الميل إليك على ظَعَنك وإقامتك،لشعورٌ يجعلني

كثيرَ الارتباك ، حيرانَ في وصف شمائلك ومزاياك ، هذا مع ما أجدهُ من جمود في خاطري،وضيق في عبارتي،وقِصَر في لفظي.**فمعذرةً يا شيخي أبا محمّد** إذا ما غشِيَـــتْني الهيبةُ،وعمِيَت عَلَيَّ وُجوهُ القول ،فلم أَقْوَ على أن أبوح بما يختلجُ في صدري ،و لم أكُ أنتظر أن أقف يوما هذا الموقف،ولكنْ كان ما كان على غير سعْيٍ منّي إليه،ولا علم لي به. وإنّ الكتابةَ عنك لمهمَّةٌ عسيرةٌ،ذلك أنّ تعدُّدَ صفحات حياتك،وتشعُّبَ مجالات نشاطك،في شتّى ميادين العلم والمعرفة،تدعُ الرّاغب في الكتابة عنك في حيرة من أمره،لا يدري أيَّ سبيل يسلك، من أين يبدأ، و إلى أين ينتهي؟

شيخي الكريم أبا محمّد:ما أكثر الأحداث التي تمرُّ بنا فيُنسينا الجديدُ منها القديمَ،ويُلهينا الكائنُ منها عمّا كان،وما أكثرَ ما نسيتُ وما أنسى ممَّا عرض لي في الحياة الدّنيا،ولكنَّ شيئا لا يمكنُ أن يبلغه النّسيانُ هو تلك الأيامُ الحلوةُ التي أنفقناها في تلمسانَ ،أيامٌ قد خلَتْ حتّى ما أستقبلُ الصّباح أو المساء،إلاّ كنتُ لها ذاكرا،وفيها مُفكِّرا،وبها حفيّا.وكأنّي لم أُخلقْ إلاّ لأعيش على ذكريات تلك الأيام،إنّها تأخذ عليَّ طُرُقَ الحياة كلَّها،فما أنا بقادر على أن أنْأَى عنها،وما أنا بمستطيع أن أُعرض عنها.كنّا نستقبلها راضين عنها، باسمين لها،مبتهجين بها.وكنتَ تردُّ إلينا الأمل حين نقنَط، وتملأُ قلوبنا بالأماني العذبة حين نيأسُ،وتدفعنا إلى العمل المخلص حين نثّاقل،وتملأُ نفوسنا مرحا وحبورا،وتلتفتُ

إلينا بين حين وحين، مُهديا إلينا ابتسامَ ثغرك، و إشراقَ وجهك،وعطفَ قلبك،وصفاءَ نفسك،وصدق أبو تمام حين قال من(الكامل):

أَعْوَامُ وَصْلٍ كَـادَ يُنْـسِي طُولَهَا ذِكْـرُ النَّوَى فَكَـأَنَّـهَا أَيَّامُ

ثُمَّ انْـبَرَتْ أَيَّامُ هَـجْرٍ أَرْدَفَتْ بِجَوَى أَسىً فَـكَأَنَّـهَا أَعْوَامُ

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنُونَ وَأَهْلُهَا فَـكَأَنَّهَا وَكَأَنَّـهُمْ أَحْلَامُ[1]

ولكنَّ ذكراك يا شيخنا لم يَعْفُ و لن يعفو رسمُها ،ولا زالتْ تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليد.

عرفتُك أوّلَ مرّة منذُ لواذ رُبع قرن، و بالتّحديد عام 1988 ، حين كنتُ طالبا في قسم اللّغة العربيّة وآدابها، في السّنة الأولى ،وتلقّيتُ على يديك الكريمتين مقرَّر الأدب القديم.وكنّا عصابةً من الطّلبة الدّاخليّين قد هيّأنا أنفُسنا لملاقاة تلك السّنة العصيبة بالجدّ والاجتهاد فقد كان الحصول على مقاييس الشّيخ رضوان النّجّار " دُونَهُ خَرْطُ الْقَتَادِ"[2]

و كان منجاةً لنا من أقدار لا تُبقي ولا تذَرُ، تتعقّبُ من يسعى إليها سعْيَ المتهاون، إمّا بتراخيه أو بلهْوِه .على أنّ مطلع ذلك العام قد أحاط أنفسنا بالوَجَل والتّيْه، **فقد كنّا نسمعُ عن شيخنا رضوان النّجّار أنّهُ مثالٌ للشّدّة والحزم، و أنّه زمّيتٌ، فيه مهابةٌ لا هوادةَ فيها، و صلابةٌ لا يتراجعُ عنها، وأنّ**

محاضراتِه ودروسَهُ من المحن التي تنفطرُ لها القلوب الصّامدةُ، يستوي في ذلك من كان أكثرَنا فطنةً، وأذكى معرفةً، و أقوى على التّجلّد من جُلمود صخر.

و اتّصلت بيننا الأواصرُ،فوجدنا فيك اطمئنانَ المدرّس و هدوءَهُ وثقتَه وبراعتَه في الشّرح والتّفسير،وسَعة صدره في سماع الأسئلة،والإجابة عليها.فقد ملأتَ دنيا الجامعة،وشغلتَ طُلاّبها فضلا عن أساتذتها بقوّة شخصيّتك،وبسْطة علمك في العربيّة،وتألّق حضورك في الملتقيات العلميّة والأيّام الدّراسيّة بفيض عطاءاتك. و إنّ في انضمامك إلى جامعة تلمسانَ مَلْءَ شاغر وسدادَ ثغر.وكنتَ حيثُ حللتَ وارتحلتَ تتركُ وراءك آثارا صالحةً، وما لقِيَك طالبُ علم وَفِـيٌّ،في نفسه استعدادٌ لقَبول العلم إلاّ وأفاد منك ما يزيدُهُ صلةً بالعربيّة،وفقهاً في اللّغة.

من أجل ذلك كنّا ولازلنا نفخرُ بالتّلمذة على يدك،ونُعجَب ببلاغتك، وكنّا ننفِرُ خِفافا وثِقالا لنغشى مجالسك، و نقعدُ منها مقاعد للسّمع، ونتزاحمُ على بابك ،ونجدُنا بساحتك عُكّفاً، نبتغي فضلا منك ورضوانا،كما قال بشارُ بنُ بُرد من (السّريع):

يَزْدَحِـــمُ النّاسُ عَلَـــى بَابِهِ وَالْمَوْرِدُ الْعَـــــذْبُ كَثِيرُ الزِّحَامْ.[3]

وسلِ الأُلوفَ المؤلّفةَ التي نشأتْ في حضنك، أو التي كانتْ ضالّةً ، ووجدتْ على نارك هدىً،فما من أحدٍ منهم إلاّ وفي حياته وأفكاره ومشاعره

أثرٌ بالغٌ من توجيهاتك.أثرٌ يعتزُّ به، ويُغالي بقيمته،ويَعدُّهُ أثمن ما أحرزهُ في الجامعة.

شيخي الكريم أبا محمّد: لقد تخرّج على يديك كثيرون من أبناء هذا الجيل، صنعتهم على عينيك.وإذا كانتْ تقَرُّ عينُك أن يسير طلبتُك على خُطّتك، و يحقّقوا ما كنتَ تدعو إليه كلَّ أيّام حياتك من مبادئَ وضّاءة ، وفضائل حسنة ، فلقد نعلم إنه ليُحزنك أن يُنكر شرذمة قليلون، تعليمك وإرشادك ،تعرفهم بسيماهم وتعرفهم في لحن القول، فاصبر صبرا جميلا ، ولا تأسَ عليهم، ولا تذهبْ نفسك عليهم حسرات ،فإنّ تبعة ذلك لا تقع عليك ، فالسَّحابُ يجودُ بالغيث على الأرض فتُنبت من كلِّ زوج بهيج، ولكنها لا تُسألُ عن إنباتها من أكل خمط وأثل وشيء من سِدر قليل.

و أُحبّ أن أُسجّل اعترافي لك بالجميل،وأشكرك شكرا جزيلا لما أهديتَ لنا من فضل عظيم لا يُنكره إلا لئيمٌ كَنُود،وما أشكُّ في أنّي حين أعترفُ بالجميل وأُسجّل الشّكر لك،لا أُعربُ عن ذات نفسي وإنّما أُعربُ عن ذوات نفوس كثيرة،وهم ألوفٌ من أولئك الذين كانوا مثلي في أوّل الشّباب يتحرّقون شوقا إلى العلم الصّحيح ،ولا يجدون سبيلا إليه.وكان مما نفخرُ به أنّ الله قيّض لنا شيخا كبيرا آتاهُ الله بسطةً في العلم،وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاءُ.كنّا ننعَم بأحاديثك،ونغرف من معين فضلك، ونصيخ السّمع بشغف إلى توجيهاتك، وكانت صلتنا بك صلة التّلميذ بأُستاذه، والمريد

بشيخه، وكنا نشعرُ ونحنُ في مجالسك أنّنا حيال بطل عملاق قويّ الشّكيمة،متّقد الذّكاء، واسع الاطّلاع، طلق المحيا، و اللّسان، حاضرالذّهن، سريع البديهة، عذب الحديث، لا يكاد يخلو حديثك من دعابة مستملحة، أو نكتة مستطرفة ... فقد كان لك منطق كما قال ذو الرُّمّة من(الطّويل):

دَقِيقُ الْحَوَاشِي لاَ هُرَاءٌ وَلاَنَزْرُ[4]

أو كما قال ابن الرُّومي في حديث مَنْ أحبَّ، من(الكامل) :

وَحَدِيثُهَا السِّحْرُ الحَلاَلُ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ المتَحَـــرِّزِ.
شَرَكُ النُّفُوسِ، وَ فِتْـــنَةٌ مَا مِثْـــلُهَا لِلْمُطْمَئِنِّ، وَعُقْلَةُ الْمُسْتَوْفِـــزِ.
إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ وَدَّ الْمُتَحَدِّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجَـــزِ[5].

لقد اجتمعتْ في شخصية **شيخنا الفاضل رضوان** النجار معالمُ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ ،كَوّنتْ ذاتَهُ وملأتْ وجدانه، ووجّهت تفكيرهُ، وأعانت اختياره. وقد اتّضحت في معالمه الخاصّة:

ملامح الذّكاء ولعلّي لا أبالغ وأنا أصف ذكاءه باللّماح،... فقد كان ذكاؤه مُدهشا، و ذاكرتُه حديديّة، وكأنّها شريطٌ مُسجّلٌ ،يستوعب الأسماء والمعانيَ ،وله قدرةٌ عجيبةٌ على الفهم، وكان الطُّلاّب على اختلاف مشاربهم

يخرجون من محاضراته وهم عاشقون لِلُغة القرآن،غيورون عليها، راغبون في خدمتها.

و عوامل النّجاح، يستوي في ذلك جانب العلم وجانب العمل، و غزارة النّشاط،فهو شُعلة من الحيويّة المتدفّقة. ودقّة النّظام،فمَنْ عرفه عن قُرب مثل ما عرفتُ،عرف تلك الدّقّةَ البالغة، ومحافظته على مراسمها يوم ظَعَنه ويوم إقامته،وعلى امتداد سنوات الشّباب والكهولة.

كان سريع الغضب وسريع الرّضا ،إنّ اللّفظة الرّقيقة تُطوِّق عُنقَه فيستسلم، و يُغدق بلا حساب ،حتّى لا تعلم يمينُه ما تُنفقُ شِماله ،ويخفِض جناحهُ لِلاّذين به واللاّجئين إليه،وذلك مما فُطر عليه، ورُكّب في طبعه من إعطاء المحروم، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، والأخذ بيد الضّعيف المستضعف، والتّجاوز عن إساءة المسيء، والإعراض عن الجاهلين. أمّا التّحدّي والظّلم فإنّهما يُهيِّجان في طبعه غرائز الخصام، فإذا هو ينسف خصومه نسفا، ويُرسل عليهم شُواظا من نار، غير حافل بما يُصيبهُ من شرر المصادمة..كما قال عنترةُ العبسيُّ من (الكامل):

وَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ مُــرٌّ مَذَاقَــتُــهُ كَطَعْمِ الْعَــلْقَــــمِ [6].

وكان يقسو في النّقد حينا، و يُغلظُ القولَ، ويشتدُّ في الرّدّ على الفارغين المتطاولين، فإذا رأى عِوجا قوّمهُ بقارص القول ولاذع التّعريض وجارح

التّبكيت، لا يتلطّف في ذلك ولا يترفّق، و لعلّ مذهبه في صنيعه هذا أنّ بعض بعض الحزم مع أدعياء العلم قد يردعهم عن غيّهم، ويردُّهم عن ضلالهم القديم، ويحفظ للعلم حرمته،وللحقّ منزلته، و يُقصي المتعالين عن الخوض في مسائل شائكة لا يحسنونها ،والتجرُّؤ على مواضيع صعبة لا يتقنونها.وكان عمله في النور دائما،لا يُدبّر أمور النهار بالليل،صدقٌ في القول،وصراحةٌ في جرأة،وإرادةٌ جبارةٌ.

ومع ذلك لايفتري على خُصمائه الكذب ،ولا يتمنّى لهم السُّوء،ولا يشمتُ بهم إذا نزل بساحتهم بلاءٌ من ربّهم عظيمٌ.وإذا عفا أتبع عفوهُ بالنّعمة والجائزة،وبالنّائل والنّافلة.وكان إذا لامهُ القومُ على حِدَّته واندفاعه يتغنّى بقول الشّاعر القديم من (الوافر):

وَقَالُوا: قَدْ جُنِنْتَ، فَقُلْتُ:

كَلاَّ وَ رَبِّي مَا جُنِنْتُ وَلاَ اسْتَشَيْتُ.

وَلَكِنِّي ظُلِمْتُ فَكِدْتُ أَبْكِي مِنَ الظُّلْمِ الْمُبَيِّنِ ، أَوْ بَكَيْتُ.

فَإِنَّ الماءَ مَاءُ أَبِي وَجَدِّي وَ بِئْرِي ذُو حَفَرْتُ وَ ذُو طَوَيْتُ[7].

شيخي الفاضل أبا محمّد: كنتَ ولا تزال منارتي الهادية ،تُضيءُ لي سواء السّبيل، و تدفعني إلى التّضحية والبذل والعطاء من أجل التّغلّب على العقبات، سكنتُ إليك واطمأننتُ،واستمتُ وألقيتُ مقاليدي إليك،وكأنّي بك تقول لي

عندما تنزل بساحتي الهموم،ويعترضُني المللُ،ويفلُّ من حَدِّي السّأمُ، و يَـمَسُّني اللّغوبُ،وأكابد النَّصَب:"لاَ تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ". نعم! كنتَ الحليفَ على النّوائب حين تنوبُ،والمعينَ على الخطوب حين تَدْلَهِمُّ،والظّهيرَ على الأيّام في ساعة العُسرة،حين تبلغُ القلوبُ الحناجر.

إنّك يا شيخي العالم الذي جمع فأوعى، جمعتَ بين العلم الغزير النّافع، والمنهج القويم الجامع، و الخُلُق العظيم المتواضع، نهلتُ من علمك العميم، وأُشربتُ منهجك القويم من خلال كثرة الاختلاف إليك،ومدارسة كتبك القيِّمة، و بحوثك الرَّصينة.تدرّبتُ على يديك الكريمتين في علم العَروض الذي هو دِيْدَنُكَ،تصول فيه وتجولُ،وأنت الذي خبرْتَهُ دراسة وتدريسا،وإشرافا وتأليفا سنينَ عددا،فكنتَ بذلك نسيجَ وحدك،وواحدَ عصرك، وفريدَ زمانك،وكوكبَ نُظرائك،وزهرةَ إخوانك،وحِليةَ أكفائك،ولا غرابةَ،فقد "أخذَ القوسَ باريها."[8]

وإنّها لنعمةٌ، وإنّهُ لفضلٌ، و"ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ." سورة الجمعة، الآية الكريمة 4.

ومهما قلتُ فلستُ بمستطيع أن أُوفيَك حقّك يا شيخي،لأنّ تلمذتي عليك والتي شرُفتُ بها قد أشرفتْ على ربع قرن من الزّمان، انطلاقا من الموسم الجامعي 1988 وسنوات التّأطير والإشراف بكلّ من شهادة الإجازة العالية1994 ، وشهادة الماجستير2007، وشهادة الدّكتوراه2012، ومجموع

الأنشطة العلميّة والتّربويّة والبيداغوجيّة في كلّيّة اللّغة العربيّة وآدابها،فقد صرتُ واحدا من أقدم مؤلّفاتك،وخرّيجا من أقدم خرّيجي مدرستك الخليليّة.

وإنّي لأعُدُّ هذه الرّحلةَ العلميّةَ الشّيّقةَ فرصةً طيّبةً،ويُشرى شرحتْ صدري "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ."سورة فُصّلت،الآية الكريمةُ 34.

والحمدُ لله فقد خُلقنا شاكرين للنّعمة ،ذاكرين للعُرف، مرتفعين عن النّقائص،متنزّهين عن الصّغائر،لا ننسى ما أهديتَ لنا من فضل،وما أسديتَ إلينا من معروف.ومن تمام المروءة وكمال الرُّجولة شكرُك والقيامُ بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل،ونرى أنّ شكرك حقٌّ يجبُ أن يُؤدَّى،وإنّا لنرى في هذا الشُّكر لذّةً، و في الكفر ألما،وإنّا لنأى بأنفسنا عن ألم الكفر،ونمعنُ في الشّكر،ونُغالي بالنّعمة التي أسديتَ إلينا،وإنّ شكر النّعمة شيءٌ لا يُطيقهُ إلاّ أُولُو العزم من النّاس.ومهما نفعلْ ومهما نبذلْ ومهما نأتِ، فما نحنُ بقادرين على أداء دَيْنك، وهو دَيْن النّعمة الْمُسداة والصّنيعة الْمُهداة. وقد قال العبّاس الصُّوليُّ يشكر عَمْراً بنَ مسعدة من(الطّويل):

سَأَشْكُرُ عَمْراً مَـا تَرَاخَتْ مَـنِيَّتِي أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَ إِنْ هِيَ جَلَّتِ
رَأَى خُلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْـنَيْهِ حَتَّى تَوَلَّتِ
فَتىً غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلاَ مُظْهِرِ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ.[9]

و قد تعلّمنا من شيخنا العلاّمة رضوان النجار ما لا يجوز للمرء أن يسكت عنهُ،وإن كان اللّسانُ عاجزا عن ذكره،فتبارك الذي بيده ملكوتُ كلّ شيءٍ، و بورك شيخُنا،وجزاهُ اللهُ الجزاءَ الأوفى على ما أسدى من أيادٍ بيضاءَ، و ربَّى من نِعَمٍ، وكِفاءَ ما محضَ من نُصح ،وأنفقَ من وقتٍ، و قوَّمَ من عِوَجٍ وأمْتٍ، و متَّعهُ اللهُ بالصّحّة والعافية،والحسنى وزيادة، حتّى يرى بأُمّ عينه غرسه الذي تعهَّدهُ بالرّعاية، وشذّب أغصانهُ، و قوَّم منآدهُ، و قد أثمر أزكى الثّمار.

و قد أُريد لي أن أحُلَّ محلَّ شيخي في تدريس العَروض، وقُطع عَلَيَّ طريقُ الاعتذار، وإنّي لعلى يقين من أنّي أصغرُ عن أن أسُدّ جانبا من المكان الذي كان يسدُّه، ولكن غاية ما أطمح إليه ـــ وقد قُدّر لي ما قُدّر ـــ أن أُحاول السّير في الطّريق الذي كان يسيرُ فيه، وأن أَؤُمَّ القصدَ الذي كان يؤمُّ، وأستهدي النّور الذي كان يهتدي به، وإمّا يُكتَبَنَّ لِيَ التّوفيقُ في هذا الذي أُحاولُ فإنّي إذن لسعيد.

أستاذنا المُمَيَّز ؛ سلاما واحتراما شيخنا الكبير:

سنشتاقُ بل اشتقنا إليكم وإلى صدقكم ومواقفكم الشجاعة، ياجنَّةً أُبدلنا بسدرها والكوثر العذب، زقوما وغسلينا .

أنت النص الصريح المحكم وغيرك الهوامش، لا والله ما أَنساك حتى أُفارقَ مهجتي، ويُشَقُّ رمسي. وسلامٌ عليكم.

تلميذك الأمين: دواح أحمد

الإحـــــــــالات

1. الخطيب التّبريزيّ:شرح ديوان أبي تمّام ـــ بيروت ـــ ط2 ـ ـــ ج2 ص73
2. الميداني:مجمع الأمثال ـــ تحقيق: طوما بيروت ـــ ط2/2002 ـــج1ص 634.
3. بشّار بن برد :الدّيوان ـــ شرح:ابن عاشور ـــالقاهرة ـــ1966 ج4 ص192.
4. ذوالرُّمة:الدّيوان-ـــشرح: المصطاوي- بيروت ـــ ط1 ـ2006/1427 ـــ ص105.
5. ابن الرُّومي:الدّيوان ـــشرح :أحمد بسج ـــ بيروت ـــ ط3 ـــ ج1ص183.
6. الزّوزنيّ:شرح المعلّقات السبع ،تحقيق:الفاضليّ ـــ بيروت ـــ ص 209.
7. المرزوقي :شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام ـــ تعليق :غُريد الشيخ ـــ دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ط1 ـــ 1424/2003ـ ج1 ص 421،420.

8. العسكريّ: جمهرة الأمثال ـــ دار الجيل ،بيروت ط2 ـ1988ـــج1 ص76.

9. ابن خِلّكان:وفياتُ الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان ـــ تحقيق:د.إحسان عبَّاس ـــ دار صادر ـــ بيروت ـــ (دت).